عاشت عيشة مترفة فى قصر ريفى بديع يحف به الجمال من كل جانب . . . وكانت امرأة ذات حسن عبقرى ، وجسم خصيب ، وأنوثة متيقظة ، ترنو إليها العيون أينما حلت ، وتشيعها القلوب أينما ذهبت ، حتى أصبحت حديث أهل المدينة كلها وفتنة لشبانها ، فترامى اسمها إلى ما وراء ذلك الاقليم « ويسكس » يجد الناس فى ذكره حلاوة وفى ترديده متعة وسلوة . . . أما هى فقد استعذبت تلك الحياة وأخلدت إلى هذه الدعة واطمأنت إلى تلك الألسنة التى تهتف باسمها فى كل يوم ، ولكن قلبها المتكبر الذى كان يشرف على تلك القلوب الساجدة العابدة لم يجد هواه إلا فى شاب رقيق الحال عادى الهيئة قد انحدر من أسرة فقيرة متواضعة . إذ كان أبوه يعمل كاتباً فى « دائرة » والدها ، ولكنه كان وديع الخلق ، كريم النفس ، رقيق المزاج ، قد أغرمت به فتاة قروية ساذجة ، فلم يرد أن يصدمها فى حبها الأول ، بل وهبها جانباً من حبه الشاب الفائض ، وأحلها ركناً من أركان قلبه الفسيح العامر ؛ فأرادت تلك الفتاة النبيلة « كارولين » أن تستأثر بذلك الشاب فاغتنمت فرصة تردده على منزل والدها بحكم عمله وأخذت تتودد إليه ... تحدثه مرة وتغازله أخرى ؛ وكانت ماهرة فى هذا الفن مجيدة لهذا النوع من الصيد . . . ولم يكن الشاب بالجامد القلب ، الخامد العاطفة ، بل كان مشبوب الاحساس ، ملتهب الشعور ، فسرعان ما استجاب لبريق عينيها ، وخضع لرخامة صوتها . . . ولكنه لم يكن يعتقد أن حظه سيسمو به إلى مراتب النبلاء ، بل أيقن أن اهتمامها به لا يعدو فرجة لعواطفها المكبوتة ، وألهية لنفسها الحائرة ، ولم يدر أن هذه الفتاة تكره أصحاب الطبائع المزيفة والشخصيات المستعارة ...

ولكن قد يجىء الوقت الذى ترى فيه العين الغبية الغاشية فى عين صاحبها نور الحب وبريق الهيام ، وها قد جاء للفتى الموعود ، ولم يكن بالغبى الأحمق فسرت الطمأنينة إلى قلبه ، وتعددت بينهما المقابلات حتى إذا ما خلا كل إلى صاحبه كشف له عن نفسه وباح له بمكنون سره ؛ فيتهامسان ويتناجيان ثم ينصرفان دون أن يذيعا سراً ، أو يفضحا أمراً ... ثم تمكنت بينهما الألفة حتى لم يستطيعا أن يكبحا تلك المواطف الثائرة التى كانت تضطرم فى قلبيهما

ولكن الفتى كان دونها شرفاً ومرتبة ، فلم تكن تستطيع أن تعلن زواجها به ، فاتخذت المسألة حلاً وسطاً ، فعزمت على الاقتران به دون أن يعلم بذلك أحد . . . ثم نظما فيما بينهما مواعيد المقابلة ، فكانا يلتقيان فى إحدى غرف المنزل بعيدين عن

أعين الناس ، فيقضيان ساعة تسكر فيها روحاهما بلذة الهدوء والغبطة ؛ ولكن هذه العاطفة المشبوبة ما لبثت أن خمدت فأخذت تفيق من السكرة الأولى ، وخلت إلى نفسها تفكر فيما أتته من طيش ورعونة ، وكيف أن فتاة كريمة المحتد عريقة النسب تتزوج من شاب دونها شرفاً وقدراً ... وكان خليقاً بها أن تقترن بنبيل عظيم ، أو قاض نابه ، أو أسقف جليل ... أجل لقد كان زوجها الشاب ذكي الفؤاد واسع الاطلاع ، ولكنه كان قليل التجارب ضيق الخبرة ...

لقد اعتاد أن يزورها تحت أستار الليل فيتسلق إلى نافذة غرفتها فيجدها في انتظاره ، ويأوي إلى جانبها ساعة والناس نيام ، ثم يعود إلى كوخه الصغير قبل طلوع الفجر ... ثم جاءها ليلة وقد شاقه الحب إليها ، ولكنه لم يمض معها ساعة حتى مل الحديث وهمّ بالنزول ، فقد كان لقاء ثقيلاً متكلفاً سمع فيه ما أثاره وأخرجه عن نفسه إذ شعر أن قلبها قد أخذ يتحول ...

والحقيقة أن اهتمامها بمصيرها أخذ ينسيها حبها إياه ... وعلى فجأة أحس بألم يقطع أحشاءه فهب واقفاً ثم مال الى النافذة يستنشق بعض الهواء ، ثم ما لبث أن همس بهذه الكلمات : « آه يا قلبي ! » ثم سقط على الأرض جثة هامدة ... فأسرعت إلى إشعال المصباح وقد خبا ضوؤه وانحنت عليه تسأله ما به ، ولكن قلب المسكين كان قد وقف ، فاستيقظ في ذهنها ما كان الطبيب قد قاله له من أنه مصاب بمرض القلب ، وأن هذا المرض قد يورده حتفه يوماً

ثم أخذت تفحصه مدة طويلة ولكنها أدركت أخيراً أن زوجها المسكين قد قضى نحبه فبقيت حائرة لا تدري ما ذا تعمل

ولقد أحست أولاً بالحزن والأسى على فراقه ، لكنها ما لبثت أن أخذت تفكر في مكانتها كابنة أحد النبلاء فنظرت الى الجثة وقالت : « لماذا تموت هنا أيها الزوج التعس وفي تلك الساعة ؟ . . لماذا لم تمت في كوخك . . ؟ إذاً لما عرف أحد أمرنا ولبقي سرنا مكتوماً » . . . ولكن دقات الساعة العالية في سكون الليل العميق قد أيقظتها من ذهولها ، فنهضت مسرعة الى الباب ، وقد عزمت على إخبار والدتها بحقيقة الأمر ظانة أن هذا هو الطريق الوحيد لخلاصها من هذا المأزق ... غير أنها لم تكد تدنو من الباب حتى رجعت عن عزمها وقد أيقنت أن في إيقاظ والدتها إفشاء لسرها كله ، فعولت على حمل الجثة بعيداً من دون مساعدة أحد . . ثم أخذت تهيأ لهذا العمل الجسيم ، فألبسته ملابسه وربطت ذراعيه ونزلت به سلماً ضيقاً ... ثم حملته إلى مكان أمين تظلله الأشجار . . . وعلى باب كوخه ألقت بحملها الثقيل ؛ وقد أخذ منها التعب كل مأخذ ؛ ثم وضعت في يده مفتاح بيته الخشبي لتعمي الحقيقة على الناس ، وانحنت عليه وقبلته القبلة الأخيرة ، وعادت أدراجها وهي تمحو آثار قدميها في الطريق . . . ثم انسلت إلى مخدعها دون أن يشعر بها أحد ؛ وأوت إلى غرفتها وأغلقت نوافذها ، وأعادت كل شيء إلى ما كان عليه

ولكن لم يكد يطلع الصباح حتى ذاع في المدينة نبأ موت ذلك الشاب الريفي الوديع على باب منزله وهو يحاول فتحه . . لقد كانت جميع الظروف تدل على أن الميتة طبيعية ، فلم يثر حولها نقاش ...

ولكن بعد تشييع الجنازة أخذ الناس يهمسون أن رجلاً كان سائراً فى الطريق فى ساعة متأخرة من الليل ، فرأى شبح امرأة يدب فى الظلام وهى تجر جثة ثقيلة فى طريقها إلى كوخ ذلك الفتى ، فأخذوا ملابسه القديمة وفحصوها من جديد ليروا فيها من آثار الجر على الأرض ، وأخيراً عرفوا أنه هو الرجل بعينه .

أما كارولين الجميلة الذكية فأخذت تفكر فيما يجب أن تعمله ... فرأت أولاً أن تعترف بالحقيقة كلها ... إلا أنها بعد أن بلغت الى تلك المرحلة دون أن ينكشف أمرها أو يرتاب فيها أحد ، عزمت على بذل مجهود آخر لأخفاء باقى المعالم . . . وسرعان ما لمعت فى خاطرها تلك الفكرة ... لقد كان ذلك الزوج يحب فتاة قروية قبل أن يقع فى شراك هذه النبيلة ، وكانت هذه الفتاة لا تزال على حبها إياه إذ لم تكن تعرف من أمر زواجه شيئاً . . على أن نفوذ كارولين على أولئك الفلاحين الذين يعملون فى أراضى والدها كان عظيما ... لها الكلمة النافذة والقول المسموع ... فعزمت على مقابلة تلك الفتاة تمسح فيها عارها وتحملها نتيجة وزرها بعد أن أخذت تفيق من نشوتها ، وشعرت بآلام الفضيحة والندم تنوش صدرها كلما ذكرت ذلك الزوج المنحوس ، حتى لقد كرهت اليوم الذى لقيته فيه وودت أن لم تكن قد رأته قط . وسرعان ما اهتدت الى تلك الفتاة فوجدتها ممتقعة اللون مهدودة الجسم ، قد ارتدت ثوباً أسود حداداً على ذلك الشاب الذى أحبته وأخلصت له وإن لم يعتن بها إلا قليلاً ... فقالت كارولين :

آه ! لقد فقدت حبيبك يا « ميلى »

فلم تستطع الفتاة أن تحبس دموعها المنهملة وقالت : « لم يكن حبيبي تماماً ولكنى كنت أنا حبيبته . أما وقد مات فانى لا أهتم بالحياة بعده »

« أتستطيعين أن تبقى على سر من أسراره يا ميلى ؟ إن هذا السر يتصل بشرفه ولا يعرفه إنسان غيرى ، ولكن يجب أن تعرفيه أنت »

فأظهرت الفتاة استعدادها لكتمان هذا الأمر . وحقاً لقد كانت وفية لذلك الشاب الذى أحبته والذى تبكيه الآن

« إذاً فقابليني اليوم بعد الغروب عند قبره أفض إليك به »

وفى غسق تلك الليلة من ليالى الربيع الجميلة ، كان شبحا هاتين الفتاتين يحومان حول قبر ذلك الفتى التعس . وفى ذلك المكان الموحش ، وفى تلك الساعة الرهيبة ، أخذت الفتاة ذات النسب والجمال تقص على ابنة الحطاب كيف أحبته وتزوجته سراً ، وكيف مات فى غرفتها ، وكيف جرته فى جوف الليل الى كوخه حتى لا ينكشف أمرها

فصاحت تلك الفتاة الساذجة مذعورة :

— تزوجته يا سيدتى ؟ !

— نعم ولكن هذا كان طيشاً منى . كان الأجدر به أن يتزوجك أنت يا ميلى فقد كنت له ، لكنك فقدته

— نعم وهم من أجل ذلك يسخرون منى فيقولون : لقد جننت به حباً وهو لم يلتفت إليك

— إن النصر على أولئك المتهكمين حلو لذيذ ... لقد فقدته حياً ولكن يمكنك أن تستردية ميتاً وعلى ذلك تستطيعين أن تنالى من أولئك الساخرين ما تريدين

— وكيف ؟

فأفضت إليها كارولين بما يجب أن تعمله . . . وهو أن تعلن ميلى بين الناس أن ذلك الشاب كان قد عقد عليها سراً ، وأنه كان يزورها فى كوخها فى الليلة التى توفى فيها . فلما قضى نحبه بين يديها حملته إلى منزله لتدرأ عن نفسها الفضيحة والعار . . وأن تقول إنها كانت عازمة على حفظ ذلك السر فى نفسها لولا أن الاشاعات والأقاويل قد أجبرتها على إفشائه

فأجابتها ابنة الحطاب وهى دهشة لهذه الفكرة :

— وكيف أثبت هذا ؟

— يمكنك أن تقولى إنك تزوجته فى كنيسة القديس ميخائيل فى مدينة (باث) باسمى بحجة أنه أول اسم خطر ببالك لتنقذى اسمك من التهمة . . . وسأعينك على ذلك

— أوه إنى لا أحب أن . .

— إذا عملت ما آمرك به فانى سأكون صديقة لك ولوالدك وإلا فسيكون لى معكما شأن آخر . . وسأعطيك الآن خاتم الزواج لتلبسيه كما لو كان لك

— هل لبسته يا سيدتى ؟

— فى الليل فقط

وأخيراً قبلت ميلى ما عرضته عليها كارولين دون تردد كبير إذ لم يكن الوقت يحتمل تردداً . . ثم أخرجت الفتاة النبيلة الخاتم من صدرها ووضعته فى أصبع ميلى وهى واقفة على قبر حبيبها . فاقشعر بدن الفتاة ومالت برأسها وقالت :

— أشعر أنى أصبحت عروساً لجثة

ولكن هذه الفتاة ما لبثت أن شعرت أنها قد ارتبطت بتلك الجثة قلباً وروحاً وأحست بشىء من الهدوء يسرى إلى نفسها . . تخيل إليها أنها قد استحوزت فى الموت على ذلك الشاب الذى عبدته على غير طائل فى الحياة

ثم أعطتها كارولين كل آثار الذكرى التى كان زوجها قد قدمها إليها حتى خصلة الشعر

وفى اليوم التالى أعلنت الفتاة ذلك الأمر بين الناس حتى ذاع بين أهل المدينة كلها . وفى ذهول ذلك الموقف الجديد أخذت ميلى المسكينة تمثل الدور كما لو كان قد حدث معها فعلا . واستطاعت بما كانت تصيبه من مال كارولين أن تشترى منزلا صغيراً وأن تتردد على الكنيسة من وقت لآخر ، وقد ازدادت جمالاً وفتنة أيقظا فى قلوب خدينتها الغيرة والحسد . . ثم فكرت فى أن تقيم نصباً تذكاريا فوق قبره ما دامت كارولين تقوم بدفع النفقات ، فما عليها هى إلا أن تقدم الحزن والأسى . . . ومالبثت ميلى أن ارتاحت إلى تمثيل دور الأرملة ، ووجدت فى زيارته كل يوم والبكاء فوق قبره لذة وتفريجاً . فكانت تنثر الأزهار فوق قبره وأصبحت تعتقد وهى تخطر فى ثوبها الحزين أنها كانت زوجة حقاً

ثم اتفق أن مرت كارولين يوما مع بعض صاحباتها بتلك المقبرة فلمحن ميلى وقد انحنت على قبر حبيبها تنثر فوقه الأزهار فى رقة وحنان ، فتأثرن لهذا المشهد المؤلم وعجبن لذلك الوفاء النادر الذى لا بد أن تكون صاحبته قد وجدت صداه فى ساكن ذلك القبر . . أما كارولين فقد شعرت كأن نورا غريبا ينبعث من عينيها يحسد تلك الفتاة على مكانها هذا كأنه لا يزال بقلبها بعض الحب لزوجها المتوفى . . . ولكن الفروق الاجتماعية أكرهتها على إخفائه فى طيات صدرها . وأخيراً لم تستطع تلك الفتاة أن تقهر تلك العواطف القوية التى كانت تصطرع فى نفسها . . . فذهبت يوما الى المقبرة ، وكمنت وراءها حتى إذا ما جاءت ميلى تنثر الأزهار

على القبر كعادتها كل يوم برزت لها كارولين وهى شاحبة مرتجفة تقول :

— ميلى ! اقتربى منى ! إنى لا أدرى ماذا أقول لك ... فقد كدت أموت

فعجبت ميلى لهذه المفاجأة الغريبة وقالت :

— معذرة يا سيدتى .. !

فدنت منها السيدة واختطفت يدها اليسرى وقالت :

— أعطنى هذا الخاتم

فأسرعت ميلى الى انتزاعه من أصبعها ... ثم أعادت كارولين سؤالها فى صوت حاد غاضب وقالت :

— إنى أطالب اليك أن تعطينى اياه ... أوه ! أوه إنك لا تعرفين السبب ... لقد عرانى حزن وألم لم أكن أتوقعهما !

فأجابتها ميلى وقد تملكها الذعر

— ولكن ماذا تريدين يا سيدتى ؟

— يجب أن تعلمى أن كل ما عملته كان كذبا وادعاء لا أساس له من الصحة ... وأنى أمرتك أن تعمليه محافظة على اسمى ... وأنه لم يتزوج غيرى ... وقصارى الكلام يجب أن تذيعى الحقيقة وإلا قضى على جسمى وعقلى وشرفى الى الأبد »

ولما كان لكل شىء حد فان للهدوء والوداعة حدها أيضاً ... فقد أصبحت ميلى تعتقد أنها قد امتزجت بذلك الشاب لحما ودما وأصبح لها الحق فى أن تحمل اسمه كما حملته ... وأن تحلم به كزوج وتتحدث عنه كزوج ... حتى لم تعد تفكر فى سواه . وأخيرا قالت وقد غمرها اليأس والقنوط :

— لا ... لا ... إنى لا أستطيع أن أتركه .. لقد أخذته منى حياً ورددته إلىّ ميتا . سأحافظ عليه الآن . أنا أرملته الوحيدة . فان نصيبى فيه أوفر من نصيبك . لأنى أحبه وأبكيه وأدعى باسمه العزيز

فصاحت كارولين وقد كاد الشرر يتطاير من عينيها :

— إنى أحبه ولن أسمح لمخلوقة مثلك أن تنتزعه منى ... كيف أسمح بذلك وهو أب لذلك الجنين الذى يضطرب فى أحشائى ... يجب أن تعيديه إلىّ ثانية ... ميلى ! ميلى ! ألا ترحمينى وتقدرين موقفى ؟ ياللتسرع ! إنه عدو النساء ، لماذا لم أتروّ قبل أن أقدم على العمل ؟ هيا أعطينى ما أعطيتك وأكدى لى أنك ستساعدينى على نشر الحقيقة

— محال ! محال ! ؟

وقد ازدادت الفتاة إصرارا وعنادا : « انظرى إلى هذا النصب ... انظرى الى ثوب الحداد ... الى هذا الخاتم ... استمعى الى الاسم الذى ينادونى به ... إن نفسى ليست أهون علىّ من نفسك ... أفيعد أن أعلن أن حبه حبى ، وأن نفسه نفسى ... وأحمل اسمه بدلا من اسمى ، وأتخذ من موته حزنى وشجنى ... أجىء اليوم فأهدم ما بنيته بدمى ودمعى ؟.. لا ! لا ! لن أرضى لنفسى هذا العار ... إنى أصدقك القول يا سيدتى ... إن قصتى هى الحقيقة بعينها ، وأنك كنت واهمة فى كل ما ادعيته لنفسك ... ولكن أرجو يا سيدتى ألا تدفعينى إلى هذا ، إنى أتوسل إليك أن تبقيه لى »

لقد كانت ميلى تزعم أنها أرملة تدافع عن زوجها ... حتى أن كارولين رقت لحالها بالرغم منها ... فقالت لها :

— نعم ... إنى عالمة بموقفك ... ولكن فكرى

فى ... ماذا أعمل ... فبدونك لن أستطيع أن أبقى على اسمى ... فان نشر الأكاذيب والفضائح أحب شىء للجمهور ... » ولم تمض بضع دقائق حتى كانت الفتاتان قد شمرتا بضرورة العمل معاً .. فأخذتا تتشاوران فيما يجب أن يعملا ... وأخيراً عادت ميلى الى بيتها ... وأفضت كارولين الى أمها بكل ما حدث ... ولم يمض على ذلك بضعة أيام حتى تركت كارولين وأمها القرية وذهبتا الى لندن حيث وافتهما هناك ميلى بحجة تغيير الهواء على نفقة تلك الفتاة النبيلة التى كانت تشفق عليها فى محنتها ووحدتها

وفى مستهل العام الجديد عادت ميلى الى القرية تحمل بين ذراعيها رضيعاً فأقامت فى منزلها الصغير تعنى بذلك الطفل الجديد بما كان يصلها من كارولين من مال ...

وبعد ذلك بعامين تزوجت كارولين بأحد النبلاء ... فعاشت معه عيشة سعيدة إلا أنهما لم ينجبا طفلا ... بينما كان ابن ميلى يكبر شيئاً فشيئاً ، وكانت أمه تتوسم فيه يوماً بعد يوم صورة ذلك الرجل الذى استحوذ على قلبها الشاب ... ثم ذهب به الى القبر ... فسهرت على تربيته قدر ما كانت تسمح به ظروفها ... إذ أخذت كارولين تنصرف عنهما شيئاً فشيئاً ، ولم تعد تفكر فى طفلها إلا لماماً ... ولكن ميلى كانت تقتطع من قوتها لتقوم بنفقات الطفل ، فأرسلته الى المدرسة الابتدائية .. ولما بلغ العشرين دخل فى الجيش متخذاً من الجندية ألهيته وعمله ، وسرعان ما أكسبته رجولته الكاملة وأخلاقه القوية ومواهبه النادرة إعجاب رؤسائه .. فحبوه بعطفهم وحبهم حتى أبلى بلاء حسناً فى تلك الحرب الضروس التى خاضتها بلاده أخيراً ... فلما انتهت عاد الى انجلترا وقد رقى الى قائد فرقة ولما يبلغ الخامسة والعشرين

ترامت أخبار ذلك الابن الى كارولين ... وكيف أنه قد أشرف على الذروة دون أن يكون صنيعة لأحد ... فأيقظت فيها غرائز الأمومة الكامنة وملأتها كبرياء وفخراً . فأخذت تهتم بابنها الظافر الموفق ورغبت فى رؤيته بعد أن توفى زوجها « المركيز » دون أن تعقب منه ولداً ... فاتفق يوماً بينما كانت تسير بعربتها خارج المدينة أن مرت بها إحدى الفرق العسكرية فوقع بصرها على ضابط شاب قد امتطى جواداً أصيلا مطهماً ... فسرعان ما عرفته لما بينه وبين زوجها الأول من شبه قوى ، فضاعف هذا المنظر عواطف الأمومة التى بقيت كامنة فى زوايا قلبها هذه المدة الطويلة ، فأخذت تسائل نفسها كيف صبرت على إغفاله هذه السنين الطوال ... فلو أنها كانت جريئة فى حبها مخلصة فى عاطفتها ... لاعترفت بزواجها الأول ولنهضت بتربية ذلك الطفل كابن لها ... فماذا كان يضيرها لو أنها فقدت هذه الجواهر النادرة وكسبت ابناً شهماً قادراً ... أخذت هذه التأملات والعواطف تعمل فى قلب تلك المرأة المكتئبة الوحيدة ، وأخذ الندم ينوش فؤادها الحزين على عدم الاعتراف بزوجها الأول أضعاف ما آلمها للاقتران به

وأخيراً لم تستطع أن تغالب تلك الرغبة القوية الملحة التى كانت تتأجج فى صدرها حتى أيقنت أنها لا يمكنها أن تعيش دون أن تعلن أمومتها لهذا الفتى ، فعزمت على أن تنتزعه من حضن تلك المرأة التى أخذت تضمر لها الكراهية والبغضاء لأنها استبدت بذلك الطفل دونها ... ثم أيقنت أن ذلك الابن سيرحب باستبدال فلاحة معدمة ، بأم أخرى نبيلة غنية

وفى اليوم التالى ذهبت إلى بيت مبلى القديم فى تلك القرية الصغيرة فوجدتها لا تزال فى ثيابها السوداء الريفية حداداً على فقد حبيب شبابها ... فلم تكد تخطو الى داخل الكوخ حتى صاحت :

— انه ابنى يجب أن تتركيه لى . . . لقد أصبحت فى موقف أتحدى فيه العالم أجمع . أظنه يزورك من وقت إلى آخر

— كل شهر منذ أن عاد من الحرب . . . ياسيدتى ... ويمكث يومين أو ثلاثة فى كل مرة ... وأصحبه أحياناً فى رحلات قصيرة . قالت هذا فى صوت الظافر المطمئن

فأجابتها كارولين فى هدوء :

— حسن . يجب أن تتركيه لى . إنك لن تفقدى شيئاً فلك أن تريه متى شئت . سأذهب الآن إلى اثبات زواجى الأول وسآخذه معى

— لقد نسيت يا سيدتى أن هناك اثنين يجب أن يؤخذ رأيهما فى هذا الموضوع ، لست أنا فقط بل هو كذلك

— سأتمم كل شىء . لا تظنى أنه سيرفض . ولكنها لم ترد أن تسرع الى مبلى بالتعرض إلى الأصل والنسب ، فقالت : إنه لحمى ودمى ولا يتصل بك فى شىء . فانفجرت القروية غيظاً وقالت فى تهكم مرير : « ماذا يعنينى من أمر اللحم والدم ؟ إنى أترك المسألة له فلندعه يفصل فيها بنفسه »

فأجابتها كارولين : « هذا كل ما أبغيه . قلت أرسلى فى طلبه ولأقابله هنا » . ثم أرسل فى طلب الضابط ، وجلس الثلاثة فى ذلك الكوخ الصغير يتداولون فيما بينهم

لم يدهش الشاب إذ علم أن أمه إحدى النبيلات المشهورات فقد كان يعرف أن ولادته محاطة بشىء من الغموض — أما سلوكه نحو البارونة فانه لم يخل من الاحترام والتقدير ، إلا أنه كان أقل مما تنتظر ، وأخيراً وضع أمامه أمر التفاضل بينهما وسرعان ما قال قولته الأخيرة :

« لا يا سيدتى . إنى أشكرك كثيراً ، ولكنى أفضل أن أترك الأمور كما هى ، فان اسم والدى هو اسمى على أى الحالات . إنك لم تعنى بى يا سيدتى إلا قليلاً عندما كنت طفلاً لا حول لى ولا قوة ، فلماذا أدعى إليك الآن وقد أصبحت قوياً قادراً ؟ !!

إن هذه المخلوقة العزيزة (مشيراً إلى مبلى) قد حبتنى عطفها طفلاً ، وعالتنى شاباً ، وسهرت على مريضاً ، وحرمت نفسها حتى أتفه اللذات من أجلى . إنى لا أستطيع أن أحب أماً أخرى كما أحبها . إنها أمى وسأكون دائماً ابنها ، ثم طوق عنقها بذراعيه وطبع على جبينها قبلة أودعها أرق عواطف البنوة وأسماها

فلم تقوَ كارولين المسكينة على مشاهدة هذا المنظر الذى كاد يستل روحها من بين أضالعها . فقالت وقد خنقتها العبرات وتهدج صوتها فى حلقها :

— إنك تقتلنى ! ألا تستطيع أن تحبنى أيضاً ؟

— لا يا سيدتى . لقد كرهت أن تنتسبى إلى أبى الفلاح ، وإنى أكره أن أنتسب إليك !

فتنهدت المرأة تنهدات عميقة عالية وقالت : « ألا تستطيع أن تعطينى قبلة واحدة ... كما أعطيتها ؟ إنها ليست كثيراً ... هى كل ما أريد ... كل ...

فأجابها : نعم . ثم قبلها قبلة عابرة باردة كانت فيها نهايتها .